

من الكبرياء إلى الاتضاع



السبت بعد الظهر

المراجع الأسبوعية: دانيال ٤: ١-٣٣؛ أمثال ١٤: ٣١؛ ٢ ملوك ٢٠: ٢-٥؛ يونا ٣: ١٠؛ دانيال ٤: ٣٤-٣٧؛ فيلبي ٢: ١-١١.

آية الحفظ: «آياته ما أعظمها، وعجائبه ما أقواها! ملكوته ملكوت أبدي وسلطانه إلى دور فدور» (دانيال ٤: ٣).

سُمِّي الكبرياء بأنه الخطية الأولى. لقد تجلَّى وظهر أولاً في لوسيفر، ملاك في ملكوت السماء. وبالتالي يقول الله من خلال حزقيال: «قد ارتفع قلبك لبهجتك. أفسدت حكمتك لأجل بهائك. سأطرحك إلى الأرض وأجعلك أمام الملوك لينظروا إليك» (حزقيال ٢٨: ١٧). قاد الكبرياء لوسيفر للسقوط، والآن هو يغرس الكبرياء في البشر، وهكذا يقودهم ليسلكوا طريقاً نحو الهلاك. نحن جميعاً جنس بشري ساقط، مُتَكَلِّين على الله في وجودنا بحدِّ ذاته. آية هبات لدينا، كل ما نُجزه ونحققه بواسطة هذه الهبات، يأتي من الله فقط. وإذ ذاك، كيف نتجرأ على أن نكون مُتَكَبِّرِينَ، مُتَفَاخِرِينَ، أو مغرورين في الوقت الذي فيه يجب، أن يكون التواضع هو المُسَيِّطِر على كل ما نفعله؟ استغرق الأمر وقتاً طويلاً لكي يفهم نَبُوخَدَنْصَرُ أهمية التواضع. حتى ظهور الرجل الرابع في آتون النار (انظر درس الأسبوع الماضي) لم يُعَيِّرْ مسار حياته. فقط بعدما نزع الله عنه مملكته وأرسله ليعيش مع حيوانات الحقل، يُدرك الملك مقامه الحقيقي.

* نرجو التعمق في موضوع هذا الدرس استعداداً لمناقشته يوم السبت القادم ١ شباط (فبراير).

أليست هذه بابل العظيمة؟

اقرأ دانيال ٤: ١-٣٣. ماذا يحدث للملك، ولماذا؟

يُعطي الله نَبُوخَذَنْصَرَّ حُلْمًا ثانيًا. في هذه المرة، لا ينسَ الملك الحلم. ولكنَّ الملك يستدعي دانيال ليُقدِّم تفسيرًا للحلم، بسبب فشل الخبراء البابليين مُجددًا. في هذا الحلم، يرى الملك شجرةً كبيرةً علُوها إلى السماء وكائن سماوي يأمر بأن تُقَطَّع الشجرة. لا يبقى من الشجرة إلا السَّاق (الجذع) والجذور في الأرض لتبتلَّ بندى السماء. ولكن ما لا بُدَّ أن يكون قد أزعج نَبُوخَذَنْصَرَّ هو الجزء من الحلم الذي قال فيه الكائن السماوي: «ليتغيَّر قلبه عن الإنسانية، وليُعطَّ قلب حيوان، ولتمضي عليه سبعة أزمنة» (دانيال ٤: ١٦). وبإدراك دانيال لخطورة وجدِّية الحلم، يُعبِّر بأدب عن أمْنيته أن يكون الحلم مُشيرًا لأعداء الملك. ولكن، أمانةً منه للرسالة التي ينقلها الحلم، يقول دانيال أنَّ الحلم في الحقيقة يُشير إلى الملك نفسه.

تُستخدم الأشجار عادة في الكِتَاب المُقَدَّس كرموز للملوك والأمم والإمبراطوريات (حزقيال ١٧؛ حزقيال ٣١؛ هوشع ١٤؛ زكريا ١١: ١، ٢؛ إنجيل لوقا ٢٣: ٣١). وهكذا، فإنَّ الشجرة الكبيرة هي تمثيل مُناسب لملك مغرور ومُتَعَجِّرف. يُعطي الله نَبُوخَذَنْصَرَّ سُلْطَةً وَقُوَّةً؛ ومع ذلك، يفشل باستمرار في أن يُدرك بأنَّ كل شيء يمتلكه يأتي من الله.

رُكِّز على دانيال ٤: ٣٠. ما الذي يقوله الملك مما يُظْهِرُ بأنه ما زال لا يستوعب التحذير الذي أعطاه الله له؟

ربما الأمر الخطير جدًّا في الكبرياء هو أنَّه يمكن أن يقودنا لأن ننسى مدى اعتمادنا على الله في كل شيء. وحالما ننسى ذلك، نكون واقفين على أساسٍ روحيٍّ خطير.

ما هي الأشياء التي أنجزتها في حياتك؟ هل يمكنك أن تتفاخر بها دون أن تشعر بالكبرياء؟ إذا كان الأمر كذلك، كيف ذلك؟

إنذار بواسطة النبي

اقرأ دانيال ٤: ٢٧. إلى جانب الإنذار عمًا سيحدث، ما الذي يقوله دانيال للملك ليفعله، ولماذا؟ (انظر أيضًا أمثال ١٤: ٣١).

لم يُفسّر دانيال الحلم فقط، ولكنه يُبين لبُؤُخَذَنْصَر أيضًا طريقًا للخروج من وضعه: «لذلك أيها الملك، فلتكن مشورتى مقبولة لديك، وفارق خطاياك بالبر وأثامك بالرحمة للمساكين، لعله يطال اطمئنانك» (دانيال ٤: ٢٧).

لقد قام بُؤُخَذَنْصَر بأعمال بئائبة ضخمة في بابل. الحداثق، نظام قنوات للري، مئات الهياكل ومشاريع مبانٍ أخرى أحالت المدينة إلى واحدة من عجائب العالم القديم. ولكن روعةً وجمالاً كهذا، جزئيًا على الأقل، أُنجِزَ مِنْ خلال استغلال واستعباد القوى العاملة للعبيد ومن خلال إهمال الفقراء. بالإضافة إلى ذلك، فثروة الإمبراطورية استُخْدِمَت لإشباع مَسْرَاتِ الملك وحاشيته. وهكذا، فكبرياء بُؤُخَذَنْصَر لم تمنعه فقط من الاعتراف بالله، بل جَعَلتَه غافلاً أيضًا عن مشقّات الذين هُم في حاجة. فليس مُستغربًا أنَّ دانيال ميّز خطية إهمال الفقراء أمام الملك، مِنْ بين باقي خطاياهِ المُحتملة، نتيجةً للاهتمام الخاص الذي يُظهِره الله تجاه الفقراء.

إنَّ الرسالة إلى بُؤُخَذَنْصَر لم تكن بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوال شيئًا جديدًا. لظالما أنذر أنبياء العهد القديم شعب الله ضد قهر الفقراء. في الواقع، مِنْ أبرز الخطايا التي أدَّت إلى نفي الملك هي خطيئة إهمال المُحتاجين. على كل حال، فالعطف على الفقراء هو أسمى تعبير عن أعمال الخير المسيحية؛ وعكس ذلك، استغلال وإهمال الفقراء يُمثّل هجومًا على الله نفسه. في اهتمامنا بالمُحتاجين، نحن نعتزف بأنَّ الله يمتلك كل شيء، ذلك يعني أننا لسنا المالكين بل نحن مُجرّد وكلاء عن ملكية الله.

إذ نخدم الآخرين بممتلكاتنا، نُكرم الله ونعتزف بألوهيته. إنَّ ملكية الله هي التي يجب أن تُحدّد في النهاية قيمة ومُهَمّة الممتلكات المادية. هذا هو ما فشل فيه بُؤُخَذَنْصَر، ونحن بدورنا نُجازف الفشل فيه أيضًا، إلا إذا اعترفنا بسلطان الله على كل إنجازاتنا وأظهرنا إدراكنا لهذه الحقيقة من خلال مُساعدة المُحتاجين.

العلي مُتسلِّطٌ...

على الرغم من إخباره بضرورة التوبة والسَّعي للحصول على مغفرة الله، فإنَّ تعنُّت بَبُوخَذَنْصَر وكبريائه أوجبت تنفيذ الحُكم السماوي (دانيال ٤: ٢٨-٣٣). بينما كان الملك يتمشَّى في قصره مادحًا نفسه على ما أنجزه، أُبتلي بحالة عقلية أجبرت على طرده من القصر الملكي. ربما يكون قد عانى من حالة مرضية عقلية يُطلق عليها علميًا اسم اللايكولوجيا أو توهُم التلبُّس بالحيوان. وهي حالة مرضية تقود الإنسان المريض لكي يتصرَّف مثل الحيوان. تُسمَّى هذه الحالة أو المرض، في العصر الحديث، «خلل النوع» أو «خلل الفصيلة»، وهو شعور المريض أن جسده من فصيلة مختلفة، ومن ثمَّ، رغبته أن يكون حيوانًا.

اقرأ ٢ ملوك ٢٠: ٢-٥؛ يونا ٣: ١٠؛ إرميا ١٨: ٧، ٨. ماذا تقول لنا هذه الآيات عن فرصة الملك في تجنُّب العقاب؟

مع الأسف، كان على بَبُوخَذَنْصَر أن يتعلَّم من خلال التجربة القاسية. عندما أنعم الله على بَبُوخَذَنْصَر بالقوَّة الملكية، لم يكن لديه القدرة أو القابلية ليتأمَّل في علاقته مع الله. وهكذا، عن طريق حرمان الملك من السلطة الملكية وإرساله للعيش مع حيوانات الحقل، يُعطي الله الملك فرصةً ليعتَرَف باعتماده الكلي على الله. في الحقيقة، إن الدرس الأساسي الذي يريد الله أن يُعلِّمه للملك المغرور هو أنَّ «السماء سُلطان» (دانيال ٤: ٢٦). وبالْحَقِيقَة، فالدينونة التي وقعت على الملك لها هدف أكبر في خطة الله، كما عبَّر عنها في أمر الكائن السماوي القائل: «لكي تعلم الأحياء أنَّ العلي مُتسلِّطٌ في مملكة الناس، فُعطِيها من إيشاء، وينصب عليها أَدْنَى الناس.» (دانيال ٤: ١٧). بكلمات أخرى، إنَّ العقاب أو التأديب المُطبَّق على بَبُوخَذَنْصَر يجب أن يكون درسًا لنا جميعًا كذلك. لأننا ننتمي إلى جماعة «الأحياء»، علينا أن نولي اهتمامًا أفضل إلى الدرس الأساسي الذي علينا أن نتعلَّمه وهو أنَّ «العلي مُتسلِّطٌ في مملكة الناس».

لماذا علِّمنا ومعرفتنا بأنَّ العلي مُتسلِّطٌ هو درس مهم جدًّا لنا لتتعلَّمه؟ كيف يجب أن تؤثر هذه المعرفة، مثلًا، على كيفية معاملتنا مع أولئك الذين نتسلَّط عليهم؟

رفعت عيني إلى السماء

اقرأ دانيال ٤: ٣٤-٣٧. كيف، ولماذا، تتغير الأشياء بالنسبة للملك؟

سَمَحَ اللهُ أَنْ يُبْتَلَى نَبُوخَدَنْصَرُ بِمَرَضٍ غَرِيبٍ، لَكِنْ فِي النِّهَايَةِ يُعِيدُهُ اللهُ بِسَهْوَةٍ إِلَى حَالَةٍ عَقْلِيَّةٍ سَلِيمَةٍ. مِنَ الْمَثِيرِ لِلْاهْتِمَامِ، أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَتَغَيَّرُ، عِنْدَ نِهَايَةِ السَّبْعِ سِنَوَاتٍ الَّتِي تَنبَأُ عَنْهَا النَّبِيُّ، عِنْدَمَا يَرْفَعُ الْمَلِكُ الْمَرِيضُ عَيْنَيْهِ «إِلَى السَّمَاءِ» (دانيال ٤: ٣٤).

«ظَلَّ نَبُوخَدَنْصَرُ مَدَى سَبْعِ سِنَوَاتٍ مَوْضِعَ ذَهُولِ رَعَايَاهُ، وَتَمَّ إِذْلالُهُ أَمَامَ كُلِّ الْعَالَمِ. حِينَئِذٍ عَادَ إِلَيْهِ عَقْلُهُ وَنَظَرَ بَوْدَاعَةَ إِلَهِي السَّمَاءِ. وَاعْتَرَفَ بِأَنَّ يَدَهُ قَدْ تَدَخَّلَتْ فِي تَأْدِيبِهِ. وَاعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ بِإِعْلَانٍ نَطَقَ بِهِ عَلَى مَلَأٍ مِنَ النَّاسِ، وَبِرَحْمَةِ اللهِ الْعَظِيمَةِ فِي إِرجاعِهِ» (روح النبوة، الأنبياء والملوك، صفحة ٤٢٨).

لا شك أن تغييرات عظيمة يمكن أن تحدث عندما نرفع أعيننا إلى السماء. حالما رجع إليه فهمه، يعطي الملك برهاناً على أنه تعلم هذا الدرس.

ولكن هذه القصة ليست بالأكثر عن نَبُوخَدَنْصَرٍ بِقَدْرِ مَا هِيَ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ. لَقَدْ أَضَاعَ الْمَلِكُ ثَلَاثَ فُرُصٍ سَابِقَةٍ لِيَقْبَلَ إِلَهَ إِسْرَائِيلَ كَرَبًّا لِحَيَاتِهِ. كَانَتْ هَذِهِ الْفُرُصُ مُتَاحَةً لَهُ عِنْدَمَا اعْتَرَفَ بِالْحِكْمَةِ الْاسْتِثْنَائِيَّةِ لِلْأَسْرَى الْيَهُودِ الْأَرْبَعَةِ (دانيال ١)، عِنْدَمَا فَسَّرَ دَانِيَالُ حَلْمَهُ (دانيال ٢)، وَعِنْدَمَا أُنْقِذَ الْعِبْرَانِيِّينَ الثَّلَاثَةَ مِنْ آتُونِ النَّارِ (دانيال ٣). بَعْدَ كُلِّ هَذَا، إِذَا كَانَ ذَلِكَ الْإِنْقَازُ لَا يَجْعَلُهُ يَتَّضِعُ، فَمَاذَا بَعْدُ؟ وَبِالرَّغْمِ مِنْ عِنَادِ ذَلِكَ الْحَاكِمِ، يُعْطِيهِ اللهُ فُرْصَةً رَابِعَةً، يَرْبِحُ فِيهَا أَخِيرًا قَلْبَ الْمَلِكِ، وَيُعِيدُهُ إِلَى مَقَامِهِ الْمَلِكِيِّ (دانيال ٤). وَكَمَا تَوْضَحُهُ حَالَةُ نَبُوخَدَنْصَرٍ، يُعْطِي اللهُ الْإِنْسَانَ فُرْصَةً بَعْدَ أُخْرَى لِيُعِيدَنَا إِلَى عِلَاقَةٍ صَاحِبَةٍ مَعَهُ. كَمَا كَتَبَ الرَّسُولُ بُولَسُ بَعْدَ ذَلِكَ بِقُرُونٍ عَدَّةً، أَنَّ الرَّبَّ «يُرِيدُ أَنْ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُوا، وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ يُقْبَلُونَ» (١ تيموثاوس ٢: ٤). نَرَى فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مِثَالًا قَوِيًّا لِهَذَا الْحَقِّ.

ما هي الطرق التي أخضعك الله بها؟ ما الذي تعلمته من الاختبار؟ أية تغييرات أنت بحاجة لاتخاذها لكي تتجنب الخضوع لتعلم الدرس مرة أخرى؟

متواضع وممتن (شكور)

الملك التائب يعلن: «جميع سُكَّانِ الأرض كلا شيء» (دانيال ٤: ٣٥). بالنظر إلى السياق، ما هي النقطة الهامة التي يقصدها؟

كيف نعرف أن نَبُوخَدْنَصَّرَ قد قَبِلَ الإله الحقيقي بالفعل؟ نجد جزءًا كبيرًا من البرهان على حقيقة أن نَبُوخَدْنَصَّرَ نفسه هو مؤلف الرسالة المُدرّجة من قبل دانيال في الأصحاح ٤. وبالْحَقِيقَةِ، الجزء الأكبر من هذا الأصحاح يبدو كأنه نُسِخٌ من منشور أو رسالة وَزَعَهَا الملك على مملكته الشاسعة. في هذا المنشور، يُخبر الملك عن كبريائه وجنونه، وبتواضع يعترف بتدخُّلِ الله في حياته. نادرًا ما كان الملوك القدماء يكتبون أي شيء مُهين أو ازدرائي عن أنفسهم. عمليًا، جميع الوثائق الملكية القديمة التي نعرفها تُمجِّد الملك. إذًا، وثيقة مثل هذه، يعترف فيها الملك بكبريائه وتصرفاته الحيوانية، تُشير إلى تجديد حقيقي. بالإضافة إلى ذلك، بكتابتِه منشورًا يسرد فيه اختباره ويعترف فيه بالتَّضَاعِ بِسُلْطَانِ الله، فإنَّ الملك يتصرف كمْبَشَّرٍ. فهو لا يستطيع بعد أن يحتفظ لنفسه ما اختبره وما تعلَّمه من الإله الحقيقي. ما رأيناه هنا، إذًا، في صلاة وتسبيح الملك (دانيال ٤: ٣٤-٣٧)، يكشف حقيقة اختباره.

للملك الآن مجموعة مختلفة من القِيمِ ويمكنه أن يدرك محدودية القوة البشرية. في صلاة شُكْرٍ بليغة، يُمجِّد الملك قوَّةَ إله دانيال ويُقرُّ أن: «جميع سُكَّانِ الأرض كلا شيء» (دانيال ٤: ٣٥). وكأنه يقول، إنَّ البشر ليس فيهم شيء من أنفسهم يُفخرون به. وهكذا، تُظهِر هذه اللوحة الأخيرة لِنَبُوخَدْنَصَّرَ في سفر دانيال، تُظهِر ملكًا متواضعًا وممتنًا (شَاكِرًا)، يُرْنَمُ بتسايح لله ويحذرنا ضدَّ الكبرياء.

بالطبع، ما زال الله يُغيِّر حياة الناس في أيَّامنا هذه. بغض النظر عن مدى كبرياء أو خطيئة البشر، ففي الله هناك رحمة وقوَّة لِتُغيِّر الخُطَاةَ المُتَمَرِّدين إلى أبناء إله السماوات.

اقرأ فيلبي ٢: ١-١١. ما الذي نجده هنا، الذي يجب أن يقضي على الكبرياء في حياتنا؟

لمزيد من الدرس: «ذاك الذي كان سابقاً ملكاً متكبراً أمسى الآن ابناً لله متواضعاً، والملك الطاغية المُعتَز بنفسه صار ملكاً حكيماً ورحيماً. وذاك الذي كان يتحدّى إله السماء ويُجَدِّف عليه، اعترف الآن بسلطان العلي وسعى بكل غيرة في نشر مخافة الرب وعمِل على إسعاد رعاياه. لقد تعلّم أخيراً تحت توبيخ الرب الذي هو ملك الملوك ورب الأرباب الدرس الذي على كل ملك أن يتعلّمه - وهو أن العظمة الحقيقية هي في الصلاح الحقيقي. وقد اعترف بأنّ الرب هو الإله الحي إذ قال: «أنا بَبُوخَذَنْصَرُ أُسْبِحُ وأُعْظِمُ وأُحْمَدُ ملك السماء الذي كل أعماله حق وطرقه عدل ومَن يسلك بالكبرياء فهو قادر على أن يذلّه» (دانيال ٤: ٣٧).

«بذلك تمّ قصد الله في أن تعمل أعظم مملكة في العالم على إذاعة حمده. والبلاغ العام الذي اذيع وبلغ كل الأسماع، الذي فيه اعترف بَبُوخَذَنْصَرُ برحمة الله وصلاحه وسلطانه كان هو آخر عمل عمله في حياته وسجّله التاريخ المُقدَّس» (روح النبوة، الأنبياء والملوك، صفحة ٤٢٨).

أسئلة للنقاش:

١. «الكبرياء يقود إلى كل رذيلة أخرى: إنها حالة ذهنية مُعادية لله تمامًا. هل يبدو ذلك مُغالاة بالنسبة لك؟ إذا كان الأمر كذلك، فكّر ملياً... كلما ازداد كبرياء الشخص، كلما ازدادت كراهيته لكبرياء الآخرين. بالحقيقة، إذا أردت أن تكتشف مدى كبريائك، فأسهل طريقة هي أن تسأل نفسك: «ما مدى كراهيتي لتجاهل الناس لي، أو رفضهم الانتباه لي أو مُلاحظتي، أو يتدخّلون بما يخصني، أو يتفضّلون علي، أو يتفاخرون؟ النقطة هي أنّ كبرياء كل إنسان تكون في منافسة مع كبرياء كل شخص آخر. إنه بسبب رغبتني في أن أكون محط الأنظار في الحفل، أغتاز جدّاً من شخص آخر لكونه هو محط الأنظار. اثنان في تجارة واحدة لن يتوافقا.» (C. S. Lewis, Mere Christianity, صفحة ١١٠). ماذا يقول Lewis هنا يمكن أن يساعدك لتري الكبرياء في حياتك؟

٢. هناك موضوع رئيسي في هذا الأصحاح، كما في بعض الأصحاحات السابقة، هو سلطان الله. ما هي الأهمية القصوى لفهم هذا الموضوع؟ أي دور يلعبه السبب في مساعدتنا لفهم هذا الحق الأساسي؟